الباب الثالث

موسكو فى بداية الحرب

أعلن فى لوحة الاعلانات ، أن الاجتماع القادم لطلبة كلية الدراسات الانجليزية ، للاحتفال بأول مايو ، سيعقد مساء يوم ٣٠ أبريل فى « أولا » .

وعندما وصلت الى « أولا » ، قبل بدء الاحتفال بوقت قصير ، كان يسود الجو العام مزاج معتدل ، وشعور مرح . فقد كان طقس ربيع عام ١٩٤١ جميلا جدا ، والبنات تزينت ، وارتدت أجمل ما عندهن ، والكل فرح باليومين التاليين لأنهما اجازة ، كذلك ذهب الروع والخوف ، فقد انتهت حملات التطهير منذ وقت طويل ، وأصبح قانون ٢ أكتوبر تاريخا قريبا .

اتخذ الزعماء والقادة أماكنهم على المنصة ، مدير الكلية ، وبعض الأساتذة ، وسكرتير الحزب ، وسكرتير منظمة الشباب ، وكذلك بعض الطلبة المقربين .

بدأ الاجتماع بما يبدأ به كل اجتماع ، وهو انتخاب هيئة رئاسة شرف من المشرفين على اقامة المؤتمر ، بعد ترشيحهم طبقا للتعليمات المحددة . وكلما ذكر اسم « ستالين » و « مولوتوف » و « فوروشيلوف » تضج القاعة بالتصفيق الحاد ، وعندما يذكر اسم « ستالين » نقف اجلالا . ويستمر التصفيق لاسمه مدة أطول من الآخرين .

ألقى المحاضرة فى هذه المرة ضابط سوفييتى ، مدرس العلوم العسكرية فى الكلية . بدأها بالكلام المعتاد الذى نسمعه فى كل مرة ، فقد تحدث عن نجاح الاتحاد السوفييتى فى مجالات : الاقتصاد ، والصناعة ، والزراعة ، والدفاع ، والثقافة ، وعن التقدم الكبير فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى كل على حدة . ومن الطبيعى أن يذكر أرقاما مهولة . وقبل نهاية المحاضرة تحدث — كما هى العادة — مرة أخرى عن الموقف العالمى ، وسمعنا النغمة المكررة : الحرب الاستعمارية فى أوربا ، السياسة الحكيمة لستالين العظيم ، تلك السياسة التى حالت دون توريط الاتحاد السوفييتى فى الصراع الدائر ، ومنعت أيضا خطر توسيع دائرة الحرب . ولما كان الاتحاد السوفييتى بعيدا عن هذه الحرب ، وليس طرفا

فيها ، فلم يكن لهذه الكلمات أى اثارة عند الطلبة ، بل مرت على آذانهم مرورا عاديا ، فالكل كان يفكر فى هذه اللحظة فى قضاء أمسية مرحة . تبدأ بعد الانتهاء من المحاضرة .

ثم حدثت مفاجأة ، لم يتوقعها أحد منا ، فقد سمعنا الضابط السوفييتى يقول :« وصلت أنباء مساء أمس ، تفيد بأن القوات الألمانية نزلت فى « فنلندا » ولم يعقب على هذا الخبر ، أو يبدى أى ملاحظة ، سوى أنه قرأ الجملة ببطء تام ، ضاغطا على الكلمات ، حتى بدت واضحة جدا .

وقف بعض الطلبة مع بعضهم بعد انتهاء المحاضرة ، فدار الحديث عن موضوعها . وقال أحدهم : « عندما سمعت هذه الجملة ، حسبت أوصالى تتجمد » وأبدى آخرون ملاحظات شبيهة بهذا التعبير ، وأحسسنا جميعا بخطر غير واضح ، وغير ظاهر .

اجتمعنا فى اليوم التالى فى مظاهرة أمام المعهد ، وكانت المرة السادسة التى أشترك فيها فى مظاهرات أول مايو فى موسكو . أسدل الستار على القلق . الذى انتابنا مساء أمس ، فانطلقنا نمزح ، ونغنى ، ونحن حاملون صور الزعماء ، واللافتات التى كتبت عليها الشعارات . كانت الشعارات المكتوبة على اللافتات موحدة فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى ، فقد نشرت الصيغ المطلوب رفعها فى « برافدا » قبل أسبوع أو اثنين من حلول أول مايو . وبعد ساعتين تقريبا ، كانت المظاهرات تدخل من كل اتجاه الى الميدان الأحمر ، ثم سمعنا صوتا من مكبرات الصوت يهتف : عاشت سياسة الاتحاد السوفييتى السلمية « السلام ! » « السلام ! » .

لم تكن الهتافات يوما ما بهذا الحماس ، اذ بدت ، وكأنهم يقسمون يمينا على شىء ، يحرصون كل الحرص على أدائه .

همس فى أذنى أحد الواقفين فى الصف بجوارى — وهو من المهتمين بالسياسة : « يبدو أن هناك شيئا فى الأفق » .

نما لدى كثير من الناس ، فى الاتحاد السوفييتى ، غريزة استنتاج الأخبار من مظاهر الجو العام ، وتلك هى التى مكنت جارى فى الصف من معرفة ما همس به فى أذنى . بدأنا لأول مرة نشك فى قيمة التحالف مع ألمانيا ، ذلك التحالف ، الذى نسمع مرارا ، وتكرارا عن دوامه ، وصلابته ، وصموده أمام كل محاولة لتوهينه واضعافه . وسمعنا قبل مدة قصيرة فى المحاضرة :

« يوجد نوعان من الزواج — كما تعلمون — ، نوع يقوم على الحب ، وآخر يؤسس على التفاهم ، والتقارب العقلى • وتحالفنا مع ألمانيا شبيه بالزواج الناضج ، الذى يربطه رباط الوعى والعقل • ولهذا لن يضعف ، بل على العكس : فغالبا ما يكون الزواج ، القائم على التفاهم ، أكثر صلابة ، وأبقى من زواج الحب » •

أعلن فى مايو أن « ستالين » — وهو الذى كان يحمل رسميا حتى الآن لقب سكرتير عام الحزب — عين رئيسا لمجلس الوزراء ، و « ومولوتوف » — الذى كان حتى ذلك الحين رئيس الحكومة الاسمى — وكيلا له •

وفى أوائل يونيو عقدت اجتماعات فى كل مكان ، وهى الاجتماعات المألوفة ، لتحديد سلفيات الحكومة ، وكانت غير اجبارية من الوجهة الرسمية ، فكل واحد يستطيع أن يدفع المبلغ الذى يبدو أنه مناسب له ، غير أنه عادة ما كان يلزم بدفع مرتب شهر •

وضعت قوائم التسجيل عندنا فى المعهد ، مكتوبا فيها : الاسم ، والمبلغ الذى يقال رسميا ، أنه سيدفعه « باختياره » ، وما علينا الا التوقيع فقط ، ثم يقتطع المبلغ من المرتب قبل أن يصل ؛ ويحصل كل واحد على سند من الدولة ، يستحق الدفع بعد عشرين عاما • وقد كتبت بياناته هذه المرة تحت شعار : « دعم البناء السلمى » •

* * *

تكذيب « تاس » المهدىء

بدأ امتحاننا النهائى فى أوائل يونيو ١٩٤١م ، وساد جو الامتحان بين الطلبة ، فالأنوار تظل مشتعلة فى حجرات المدينة الجامعية ، حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولا حديث للطلبة ، الا حديث الامتحان • انشغلنا فى مذاكرة : علم الأصوات ، واللغة اللاتينية ، والتربية ، والتاريخ ، والأدب الانجليزى و « اللينينية الماركسية » ، ومادة العلوم العسكرية ، لدرجة أننا ظللنا بعيدين عن الأحداث السياسية بضعة أسابيع ، ولم نهتم بها الا للحظات معدودة ، اذ لم نبتعد عنها كلية ، حتى فى تلك الأسابيع الحاسمة من دراستنا •

وذات يوم كنت أتحدث مع احدى الطالبات فى المعهد ، ونظرنا يمينا وشمالا ، خوفا من أن يكون أحد بالقرب منا ، ثم قالت :

« نزلت الأوامر الى القوات السوفييتية على الحدود الفنلندية بأن ينزعوا أرقام وحداتهم من ملابسهم الرسمية ، ويحدث ذلك عادة ، عندما يكون الموقف خطيرا ، وينذر بوقوع صدام عسكرى » •

لم أصدق الخبر وقلت لها : « عند الحدود الفنلندية السوفييتية ؟ لقد خسرت فنلندا منذ زمن ليس ببعيد معركة حربية مع الاتحاد السوفييتى ، وأعتقد أنها لن تقوم بالهجوم على الاتحاد السوفييتى » •

وردت قائلة : « ربما بالاشتراك مع ألمانيا ؟ هذه الأخبار صادقة ، فأخو صديقتى ضابط فى الجيش ، وهو موجود الآن هناك ، ولكن لا يجوز لك بأى حال من الأحوال أن تذيع هذا الخبر » •

استغرقت فى التفكير جذعا ، هل نقف حقيقة أمام خطر حرب ؟ ولم أكن الوحيد فى الاتحاد السوفييتى ، الذى كان قلقا ، وخائفا من انفجار الموقف آنذاك • ولكن بعد بضعة أيام ، هدأ روعنا ، وتلاشت حدة الخوف ، فقد نشرت « برافدا » فى ٨ يونية سنة ١٩٤١م على صفحتها الأولى بيانا عن العلاقة بين الاتحاد السوفييتى وفنلندا جاء فيه :

« على الرغم من أن فنلندا ، لم توف بالتزاماتها فى المعاهدة التجارية المعقودة بينها وبين الاتحاد السوفييتى ، فقد تقرر ، بناء على توجيهات « ستالين » تزويد فنلندا بـ ٢٠٫٠٠٠ طن من الحبوب زيادة على المعدل التى تنص عليه المعاهدة فى توريد البضائع اليها ، على أن ينفذ ذلك فى أقصر وقت » •

حولتنى هذه الأخبار — كما حولت كثيرين غيرى — الى انسان متفائل وقال الناس فى موسكو :

« لو كان هناك أدنى احتمال لخطر هجوم من فنلندا على الاتحاد السوفييتى ما أرسل اليها الآن ٢٠٫٠٠٠ طن من الحبوب » •

وبعد أيام قليلة ، رأيت — وأنا متجه الى محطة مترو الأنفاق — مجموعة من العمال منهمكة فى عمل ما فى الدور المسخوط « بدروم » لأحد المنازل • لم أهتم بهذا فى بادىء الأمر ، ولكن فى اليوم التالى ، عندما كنت أقطع مسافة طويلة فى موسكو ، رأيت عملا شبيها ، فى أماكن متعددة ، ولم أكن الشخص الوحيد الذى لاحظ هذه الظاهرة • ومرة أخرى سرت الاشاعات عبر المدينة :

— « هل رأيتم ؟ يجرى العمل فى بناء مخابىء ••• » •

— « هذا هراء ! فهم يعملون مخازن » •

— « بلى ! انهم يعملون مخابىء لوقاية المدنيين ، من الغارات الجوية » .

— « خطأ ! هذه مخازن . تجهز لتخزين محصول البطاطس الشتوى » .

وهكذا سرت اشاعات محمومة فى موسكو فى النصف الأول من يونيو ، وقد هدأتها أخبار الـ ٢٠٫٠٠٠ طن من الحبوب ؛ ولكن بعض الناس — وخاصة الذين يملكون أجهزة راديو ، تمكنهم من سماع الاذاعات الأجنبية — استمروا فى التعبير عن خوفهم من ألمانيا الهتلرية .

قال لى أحدهم : « يقال فى نجلترا ان هتلر يريد أن يشن حربا ضد الاتحاد السوفييتى » .

ثم أضاف بعد برهة : « ولكن هذا لا يعدو دعاية انجليزية ، فهم يريدون زرع الشك بيننا وبين ألمانيا ؛ لأن معاهدة عدم الاعتداء ، لا زالت تعلو على أى نقد » .

كان هذا هو رأى معظم الذين تحدثت معهم آنذاك فى موسكو . أما الآخرون الذين كانوا قلقين جدا ، فقد هدأوا فى ١٤ يونية سنة ١٩٤١م . عندما نشرت كل الصحف فى الاتحاد السوفييتى أخبارا فى مكان بارز — وكان ذلك قبل بداية الحرب بثمانية أيام — تفيد بأن كل الاشاعات عن العلاقة بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا ، لا أساس لها من الصحة ؛ وجاء فى التفصيلات :

« ان الاتحاد السوفييتى — حرصا منه على انتهاج سياسة سلمية — التزم بمعاهدة عدم الاعتداء مع ألمانيا ؛ ولديه النية فى استمرار الالتزام بها . ولهذا فان الاشاعات التى تروج بأن الاتحاد السوفييتى يستعد لحرب ضد ألمانيا كذب وبهتان ؛ ويقصد بها التحرش والاستفزاز » .

ثم حدث شىء يعتبر فريدا فى تاريخ الدبلوماسية : اذ لم يقتصر الاعلان السوفييتى فقط على تأكيد التمسك بمعاهدة عدم الاعتداء ؛ بل أشار الى ما تحدثت به الاشاعات عن الاستعدادات الحربية الألمانية .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه الفقرة اهتماما كبيرا فى الاتحاد السوفييتى فهى تقول :

« وطبقا للتقارير السوفييتية ، فان ألمانيا تتمسك كذلك بنصوص معاهدة عدم الاعتداء السوفييتية — الألمانية ، مثل الاتحاد السوفييتى . وتفيد الدوائر الرسمية السوفييتية ، بأن الاشاعات ، التى تروج بأن

ألمانيا عازمة على نقض المعاهدة ، وشن حرب ضد الاتحاد السوفييتى لا دليل لها ، والتعديل الذى حدث مؤخرا فى القوات الألمانية ، بعد عملياتها الحربية فى البلقان ، ونشأ عنه تكوين وحدات ، غير محتاج اليها فى هذه المنطقة ، هذا التعديل اقتضته ظروف ، ليس لها أية صلة بالعلاقة الألمانية السوفييتية » .

امتلأت صالة المدينة الجامعية بالطلبة فى صباح يوم ١٤ يونيو ، رغم شواغل الامتحان ، فالكل يتدافع على « برادا » التى كانت معلقة على الحائط ، وعم الفرح والسرور ، ودخلت الطمأنينة قلب كل طالب ، لأن كل التنبؤات المخيفة قد تلاشت ، وبدأ كل يفكر فى برنامج أجازته .

كان يوم ٢٢ يونيو هو آخر يوم فى الامتحان ، ثم نسافر بعده لقضاء الاجازة ، وكنت مسرورا أيضا ، رغم أنه لم يكن عندى أى برنامج محدد للاجازة ، وعلى كل حال هناك شىء واحد الآن :

تلاشت كل الهموم ، ولم يبق الا اتمام الامتحان ، ثم أركن الى الراحة التامة .

* * *

سوف يتحدث « مولوتوف »

فى مساء يوم ٢١ يونيو ، كنت أذاكر أنا وزميلى فى الغرفة ، الطالب البولندى « بيتيك جرشوفيتش » وأقول له : « غدا سيكون آخر يوم فى الامتحان » وفجأة سمعنا طرقا على الباب ، فصاح « بينيك » : يا للشيطان ! من الطارق ؟ لا يمكن أن نتحمل هذا الازعاج ، أثناء الاستعداد للامتحان » . اشتد الطرق على الباب ، واستمر ، ثم سمعنا صوتا ينادى بلهجة الأمر : « افتح ! » ففتحت الباب غاضبا ، فوجدت أمامى فتاة صغيرة ، تحمل تحت ابطها رزمة من الورق فبادرتنى قائلة : « لا أريد ازعاجكم — أيها الطلبة الرفقاء — أثناء الامتحان ولكن ادارة المعهد أرسلتنى الى هنا ، لتركيب ما تقتضيه التعليمات الخاصة بتقييد الاضاءة فقط » وضربت بيدها على الورق قائلة : « يعلق هذا على الشباك » وبدأت فى تثبيته على شباك الغرفة ، فأصبح جو الغرفة مقبضا ، نعم شعرت بالانقباض ، ولم يبد على « بينيك » — الذى عاش الحرب الأهلية فى اسبانيا — أى تغيير ، بل ظل هادئا ، وقال مبتسما :

« حسنا ! حسنا ! هل الموقف خطير لهذه الدرجة » .

فقالت الفتـــاة : « طبعا لا ! ولا يعدو الأمر ســـوى اجراءات احتياطية عامة . حقيقة ! نحن نعيش فى سلام ؛ ولكن الحرب قائمة على قدم وساق فى غرب أوربا ؛ فالاجراءات الاحتياطية يجب أن تتخذ على أى حال » .

ويبدو أن هـــذا كان التعليل الرسمى ، الذى قيل أيضا فى الحجرات الأخرى . وفى دقائق قليلة انتهينا من وضع ستارة الورق على الشباك ؛ وانصرفت الفتاة . فقال « بينيك » : « حسنا ! سوف نرى ســـير الأحداث لقد كان عندنا ما يشبه هذا فى برشلونة » . وتبادلنا التعليقات برهة على ستارة تقييد الاضاءة ، التى تتحرك صعودا ، وهبوطا ، الديكور الجديد لحجرتنا .

كففنا عن اللعب بالستارة ، وعدنا الى مذاكرتنا بنشاط . والحقيقة أنه لو كان معى طالب آخر غير « بينيك » لأكفهر الجو ، بسبب اعتقاده بأن الموقف خطير حقيقة .

عدنا الى عملنا الذى استولى على مشاعرنا فى هذه الليلة ، فغدا آخر يوم فى الامتحان ، وظللنا نذاكر فى هذا المساء — مساء ٢١ يونيو سنة ١٩٤١م — حتى ساعة متأخرة من الليـــل . وفى صباح يوم ٢٢ يونيو استيقظ كثير من الطلبة فى المسكن الجامعى فى ساعة مبكرة ، فبعضهم ضبط المنبه على الساعة الخامسة أو السادسة ، كى يستطيع أن يراجع بعض النقاط ، فى الساعات القليلة ، قبل بدء الامتحان . ولم نفعل — أنا و « بينيك » — مثلهم فقد اتفق معى فى الطريقة ، وهى أن من الأفضل النوم وقتا طويلا ، قبل الذهاب الى الامتحان ، هكذا قررنا أن ننام حتى التاسعة صباحا .

ولكن لم نتمكن من النوم الهادىء ، فقد سمعنا فى الصباح الباكر هرج ومرج فى الطرقة ، فصاح « بينيك » وهو نصف مســـتيقظ : « أغبياء ، ملاعين ، ألا يتركونا ننام نوما هادئا قبل الامتحان ! » أمنت على رأيه . ثم أضفت بعض كلمات السباب باللغة الروسية . ازداد الهرج وارتفعت الأصوات أكثر ، فأكثر حتى طار النوم من الجفون . فنهضنا . واذا بنا نسمع دقا شديدا على بابنا ، ويصيح الطالب بأعلى صوته :

— « سوف يتحدث « مولوتوف » ، فقد أعلن ذلك منذ نصف ساعة.

فى الراديو ، ويعاد الاعلان بين الحين والحين ، يبدو أنه سيلقى بيانا هاما جدا » .

— « متى ؟ »

— « فى تمام الثانية عشر » .

ودوى هذا فى الطرقة ، فأحدث رجعا قويا . نظرنا الى الساعة فاذا هى تمام التاسعة . لا زال وقت كبير باقيا . وحاولنا أن نركز تفكيرنا فى الامتحان ، فلم نستطع ، ومر الوقت ببطء بالغ . فلم نشعر بثقل مرور الوقت ، مثل ما شعرنا به فى هذا اليوم ، ثم أعلن أخيرا عن حلول موعد اذاعة الخطاب المرتقب .

هنا موسكو ! تستمعون الآن الى خطاب نائب رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى ووزير الخارجية « مولوتوف » . وبعد لحظة سمعنا صوت « مولوتوف » ، وكان رزينا مهيبا :

« مواطنو ، ومواطنات الاتحاد السوفييتى ! اليوم ، فى الساعة الرابعة صباحا ، اعتدت القوات الألمانية على وطننا ، دون سابق انذار ، ودون أن تعلن ألمانيا الحرب علينا . عبرت القوات حدودنا فى أماكن عدة ، وقصفت « شيتومير » و « كييف » ، و « سيواستوبول » و « كاوناس » ، وبعض مدن أخرى بالقنابل . انطلقت طائرات العدو ، ونيران مدفعيته عبر الحدود الرومانية ، والفنلندية أيضا .

« ليس لهذا الاعتداء الغاشم على وطننا مثيل فى تاريخ الدول المتمدنة ، يحدث هذا الاعتداء على وطننا ، على الرغم من وجود معاهدة عدم اعتداء بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا ، وعلى الرغم من قيام الاتحاد السوفييتى بكل التزاماته طبقا لنصوص هذه المعاهدة . . . .

« وقع هذا الاعتداء على أرضنا دون سابق انذار ، فلم يسبق أن طلبت منا الحكومة الألمانية شيئا من يوم توقيع المعاهدة الى الآن ولهذا تقع مسئولية هذا الاعتداء البربرى بكاملها على زعماء ألمانيا الفاشيين » .

انتفضت أجسامنا تلقائيا ، عندما سمعنا كلمة « فاشستى » فى راديو موسكو لأول مرة بعد مرور عامين . وبعد صمت استمر لحظات ، واصل « مولو توف » خطابه :

« الآن ، وقد وقع الاعتداء على الاتحاد السوفييتى ، فقد أصدرت الحكومة السوفييتية أوامرها الى القوات المسلحة ، بأن تتصدى له ،

وتطرد القوات الألمانية من أرضنا • ولم يدفعنا الشعب الألمانى الى هذه الحرب ، ولا العمال والفلاحون الألمانيون ، ولا المثقفون الألمانيون ؛ فنحن ندرك ونفهم ما يعانونه من آلام ، وانما دفعنا اليها طغمة من الحكام الفاشيين ، مصاصو الدماء ، تلك الطغمة التى اعتدت بقوة السلاح على الفرنسيين ، والبولنديين ، والتشيكوسلوفاكيين ، والنرويجيين ، والدنماركيين ، واليونانيين ، وعلى شعوب أخرى أخضعتها بالقوة العسكرية » •

ثم تناول « مولوتوف » مقارنة تاريخية ، أعيدت مرارا فى المرحلة الأولى للحرب :

« انها ليست أول مرة ، يتعرض فيها شعبنا لهجوم مفاجىء من العدو ، فقد هاجم نابليون وطننا ، فاستبسل شعبنا فى الدفاع عن أرضه ، وأوقع بنابليون هزيمة منكرة ، قضت عليه • وسيلقى « هتلر » الذى بدأ هجومه على وطننا نفس المصير • فالجيش الأحمر وكل فرد فى شعبنا سيواصل حربا وطنية ، دفاعا عن الوطن والشرف والحرية » •

واختتم « مولوتوف » خطابه — وكان أقصر خطاب ، سمعته فى الاتحاد السوفييتى حتى الآن — بنداء الى الشعب السوفييتى :

« فالحكومة تناديكم يا مواطنو ومواطنات الاتحاد السوفييتى بأن تتحدوا وتساندوا حزبنا البلشفى المنتصر ، وحكومتنا السوفييتية ، وقائدنا الرفيق « ستالين » • فالحق معنا • وسيهزم العدو ، وسيكون النصر حليفنا » •

وقبل أن نفيق من سكرتنا ، ونعود الى وعينا ، كان خطاب « مولوتوف » قد انتهى ، ورنين الكلمات لازال يطن فى آذاننا :

« فالحق معنا ، وسيهزم العدو ، وسيكون النصر حليفنا » •

جلسنا متجمدين كالأحجار ، فلم نكن نتوقع هذا ، ولم نستطع أن ندرك ما حدث • ثم غادرنا — أنا و «بينيك » حجرتنا ، اذ لم نستطع البقاء وحدنا فيها • كان فى الحجرة المجاورة بعض الطلبة يتحدثون ، دخلنا عليهم فوجدناهم زاهلين من وقع المفاجأة ، وكان الراديو لازال يذيع المارشات العسكرية السوفييتية ، التى لا تنسجم معها مشاعرنا فى هذه اللحظة • وفجأة دخلت الحجرة احدى الطالبات ، وصاحت بأعلى صوتها : « حسنا ! الآن نخوض حربا » كانت مرحة ، تكاد تطير من الفرحة ، فلم يعجبنا تصرفها ، وقال لها أحد الطلبة :

« لا يوجد سبب يدعو الى الفرح ، فالحرب مسألة جادة وخطيرة » •

ثم ساد الصمت مرة أخرى ، وشعرت فى هذه اللحظة : كم شوهتنى التربية فى الاتحاد السوفييتى ! تخيلت بمرارة ، كم من المنشآت، التى أقيمت فى الفترة الماضية سوف يهدمها الحرب ! وكم عدد الذين سيسقطون فى الميدان ! ولسوف يقذف بكل مظاهر التطور الى الفناء • لقد كنت معجبا بكل أفكارى النازعة الى النقد ، وشعورى الذى يميل الى المعارضة ، لدرجة أن أخبار الحرب ، جثمت على صدرى كالكابوس الثقيل • وأظن أن الطلاب الآخرين ، كانوا يحسون بنفس الأحاسيس فى هذه اللحظة •

هدأنا شيئا فشيئا . وتمالكنا أعصابنا ، فانقطع الصمت الثقيل ، وبدأت الأفكار تخرج من الرؤوس وهى مترددة ، معلنة عن مختلف الآراء :

« الآن ستبدأ نهاية الفاشية الهتلرية ، وستوضع نهاية لغزوات « هتلر » فى أوربا » •

وقال آخر : « أنا أعتقد أن قواتنا عبرت الحدود الى بولندا » •

وعبر آخر عن تشاؤمه قائلا : « الحرب شىء خطير ، ومن الممكن أن يزحف « هتلر » أولا على غرب أوكرانيا ، وروسيا البيضاء ، وتتوقف عملياته الحربية عند الحدود القديمة للاتحاد السوفييتى ، وسيكون الموقف أخيرا فى صالح المعتدى » •

رفض جميع الطلبة الحاضرين تفسيره للموقف ، فمنذ عام ١٩٣٦ وأبواق الدعاية لا تكف عن ترديد أنه لن تتكرر ظاهرة التدخل فى شئون الدول الأخرى ، التى حدثت فى الفترة ما بين عامى ١٩١٩ ، ١٩٢٢ م • فلو هوجم الاتحاد السوفييتى — هكذا قيل فى كل الاجتماعات — فسيرد الجيش الأحمر المعتدين على أعقابهم ، وسيسحقهم فوق أرضهم • اعتقدنا هذا . واختلط هذا الاعتقاد بدمائنا ، بحيث لا نستطيع تصديق ضده ، لدرجة أننا تصورنا ، أنه لا يمكن وقوع حرب على الأرض السوفييتية بعد اليوم •

ثم ألقى أحد الطلبة السؤال ، الذى كان يلقى فى يوم ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ ، فى كل جلسة اجتمع فيها اثنان من السوفييت :

« ما الذى ستفعله انجلترا ؟ » •

اختلفت الآراء ، قالت احدى الطالبات : سوف نتحالف مع انجلترا ، لنحارب « هتلر » .

كانت هذه الأفكار جديدة ، وغريبة بالنسبة لنا ، بعد مرور سنتين على المعاهدة ، وأبدى أحد الطلبة تشاؤمه ، مذكرا ايانا برحلة « هيس » الى انجلترا وقال :

« ان الحرب الدائرة بين ألمانيا وانجلترا لعبة مطبوخة ، والآن سوف يحاربان الاتحاد السوفييتى جنبا الى جنب » .

ولكنه عورض بشدة ، وكان معظم مجموعتنا الطلابية الصغيرة تعتقد فى صباح ٢٢ يونيو بأننا سوف نحارب فى جبهة واحدة مع انجلترا ضد ألمانيا .

فض اجتماعنا على صوت ، انطلق بحرارة : الامتحان ! الامتحان ! فعدنا الى حياتنا العادية .

عندما خرجنا من المدينة الجامعية ، رأينا جماعات مثل النمل فى كثرتها ، كأن موسكو خرجت كلها الى الشارع ، والمحلات مكتظة ، فالكل يريد أن يشترى بسرعة مواد غذائية ، لأنه لا زال فى مخيلتهم ، أن الحرب فى الاتحاد السوفييتى تعنى : الجوع .

ولكننا بوصفنا أعضاء فى منظمة الشباب ، تلقينا محاضرات واشتركنا فى ندوات الوعى السياسى ، فقد انتقدنا اندفاع الناس الى شراء المواد الغذائية وتخزينها . نظر الى بائع السجائر مندهشا ، عندما طلبت منه علبة واحدة ، فالآخرون يشترون بالدستة .

كان الجو فى معهدنا هادئا نسبيا ، غير أن بعض زعماء منظمة الشباب ، كانوا يجوبون المعهد ، وينصحوننا بأن نهتم بواجباتنا الدراسية ، بهدوء ، وأن نتصدى لصيحات الهلع والفزع ونحاول اسكاتها ، فأجبنا بأصوات خافتة ، بأننا نعرف هذه التعليمات جيدا .

وقف عدد كبير من الطلبة أمام لجنة الامتحان ، ينتظرون السماح لهم بالدخول ، فدفعنا هذا المشهد الى الاستغراق فى جو الامتحان ، الذى لم يعد باقيا فيه الا اليوم ، لو انتهى قبل ذلك بيوم واحد ، وخرجنا من هذه الحجرة مسرورين ، لاحتفلت مع بعض الزملاء ، ولوضعنا برنامج قضاء الاجازة ، ولكنى لا أفكر فى شىء من هذا الآن ، والشىء الوحيد الذى أفكر فيه ، هو الحصول على أخبار جديدة عن الحرب .

لا جديد ! لقد بدأت الحرب فى الرابعة صباحا ، والآن الرابعة

بعد الظهر ، اثنتا عشرة ساعة مضت ، ولم يذع الراديو شيئا عن سير المعركة .

علقت مكبرات الصوت فى كل ركن من أركان المدينة ، بحيث يمكنك أن تسمع كل كلمة تذاع ، فى أى مكان كنت ، ولا يذاع سوى خطاب « مولوتوف » ، والمارشات العسكرية ، وبين الحين والآخر تذاع بعض التعليقات ، والتحليلات الاذاعية ، التى تحمس المستمعين للكفاح ضد الفاشية .

تسكعت فى شوارع موسكو ، كما كان يفعل كل الناس فى ذلك اليوم ، وبينما كنت أعبر ميدان المسرح ، سمعت صوتا عبر مكبر الصوت يقول :

« ... البربريون الفاشيون » وفجأة سمعت بجوارى شخصا يقول بالانجليزية : « الآن أصبحوا ضد الفاشية أيضا » فابتعدت عنه مسرعا ، لأنى أعلم ، مدى خطورة أن يرانى أحد بجوار أجنبى ، ولو كان هذا الأجنبى ، يعد الآن من دولة حليفة . ولما طال صمت الراديو عن اذاعة أى شىء عن سير المعارك ، انتشرت الشائعات عبر المدينة :

ـ لقد صد المهاجمون ! وارتدوا على أعقابهم خاسرين خلف الحدود .

ـ أنزل الألمان قوات مظلات فى « كييف » .

ـ الجيش الأحمر يتعقب الالمان ، وهم الآن فى الأراضى البولندية .

ماذا ستفعل انجلترا ؟ كان جواب هذا السؤال هو أهم شىء يريد أن يعرفه شعب الاتحاد السوفييتى فى ذلك اليوم ، وأجابت الاذاعات الأجنبية عليه ، فقد أذاع راديو موسكو فى بداية النشرة مقتطفات من خطاب تشرشل ، الذى تحدث فيه عن الكفاح ، جنبا الى جنب ضد « هتلر » . فتنفسنا الصعداء ، وانتشرت موجة من التفاؤل فى أرجاء المدينة الجامعية ، وربما على طول الاتحاد السوفييتى وعرضه .

* * *

أيام الحرب الأولى

ظهرت صحف الصباح فى أيام الحرب الأولى ، معلنة الحلول الجديدة بالخط العريض :

« لم يحدث أن وقف الشعب السوفييتى كله صفا واحدا مثل وقوفه فى هذه الأيـــام ؛ فبقيادة الزعيم العظيم « ستالين » سوف يسحق الشعب السوفييتى الأعداء الأوغـــاد • انتصرنا باسم « ستالين » ، وسننتصر باسم « ستالين » •

بدأت فى ٢٣ يونيو لأول مرة بعد سنتين تقريبا ، عرض الأفلام التى تندد بالفاشية . فرأيت على دور السينما الكبيرة اعلانات ضخمة لفيلم : « الأستاذ مملوك » وهو مأخوذ من المسرحية التى كتبها : « فردريش فولف » . وفيلم : « أسرة أوبن هايم » وهو مأخوذ من رواية كتبها « ليون فويشت فانجر » ولأول مرة تتحدث الجرائد عن عمليات المقاومة فى البلاد التى احتلتها ألمـــانيا الهتلرية •

وأخيرا ظهر أول بلاغ حربى ، فخاب ظن أولئك المتفائلين ، اذ جاء فيه : أن الحرب دائرة على الأرض السوفييتية ، وتضمن البلاغ عبارة غامضة ؛ يستفاد منها أن القوات الألمـــانية توغلت فى بعض المناطق ؛ فى الأراضى السوفييتية ما بين ١٠ الى ١٥ كيلو متر •

وباعلان الحلول الجديدة ، واذاعة البلاغ الأول صيغ الشعار الرسمى للحرب وهو :

« الحرب الوطنية الكبرى لشعب الاتحاد السوفييتى » •

وسرحت أفكارى لحظة ، لقد عشت بوعى فى الأعوام السابقة ، التغيير التدريجى لتحويل نغمة الدعاية تحويلا كليـــا ، تلك الطريقة التى أذابت تدريجيا كل المعانى العالمية الثورية . وركزت بشكل واضح على الوطنية السوفييتية ؛ وكان كل تغيير فى هذه الدعاية ؛ يجعلنى أفكر تفكيرا عميقا فى هذه الأساليب ؛ ولهذا لم أفاجأ بالشعار الجديد ؛ ولكنى كنت أنتظر أن تشن الحرب ــ على الأقل ــ كحرب تحرير ضد الفاشية ، لوضع هدف مشترك مع الشعوب الأخرى ؛ التى تقع تحت نير الفاشية • فوصفها بالحرب الوطنية يجعلها محصورة فقط على الأرض السوفييتية ، وبمعنى أدق فى روسيا • كان ينبغى أن توضع لهـــا خطوط موازية لمـــا حدث لروسيا مع نابليون فى عامى ١٢ / ١٨١٣ م • ربما كان التركيز على وصف الوطنية مقصودا من زعماء الاتحاد السوفييتى ، كوسيلة لكسب تأييد جبهة عريضة من المواطنين فى ادارة المعركة •

غير أنى كنت ــ كما كان كل الناس فى الاتحاد السوفييتى ــ

مشغولا بما هو أهم من التفكير فى الشعارات السياسية ، ذلك أن حالة الطوارىء العاليـــة — التى لا تكون الا فى المناطق الواقعة فى الجبهات الأماميـــة — كانت معلنة فى الجمهوريات الثلاث حول البلطيق ، وفى كل أنحاء « أوكرانيـــا » وفى الولايات الروسية الثلاث عشرة ، ومن بينها موسكو ولينينجراد • فقد أعطيت السلطات العسكرية ، فى كل هذه المناطق الحق فى اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع ، بما فيها تدريب كل المدنيين على القتال • ونزلت الأوامر خاصة باستدعاء كل المواليد من ١٩٠٥ الى ١٩١٨ للخدمة العسكرية ، ليس فقط فى المناطق الغربية ، من البلاد ، بل أيضا فى « أرشنجيلك » ومنطقة « الأورال » ، و « ســـيبريا » و « فولجـــا » و « القوقاز » ، ثم اتخذت اجراءات هامة للدفاع الجوى عن موسكو ، والمناطق المحيطة بها ، اذ فرض على كل المنازل الالتزام بالاظلام التام ، وجهزت كل المخابىء ، وأعطيت الأوامر بأن تغلق المسارح ودور السينما ، والنوادى والمنتزهات ، والمطاعم والمقاهى أبوابها فى الساعة الحادية عشرة الا ربعا • وأخيرا ألغيت كل تصريحات الاجازات للمدنيين ما دامت الحرب دائرة ويدفع للعامل أجرا زائدا يساوى أيام اجازته المستحقة • وأعطى لمديرى المصانع ورؤساء الأقســـام ، الحق فى تشغيل ساعات اضافية ، على أن يدفع أجرها للعامل بمقدار مثل ونصف أجر الساعة الأصلية •

وفى مساء ذلك اليوم عقد مؤتمر لأعضاء منظمة الشباب فى معهدنا — كما هو الحال فى كل مكان — لشرح الموقف • كانت الصالة الكبيرة مكتظة بالحاضرين ، الذين تلاصقوا فى مقاعدهم لضيق المكان • وساد السكون ، سكون ينتظر حدوث أمر هام •• وسيطرت على الجو حالة تشبه ما تحدثت عنه كتب المنظمة فى وصفها لزمن الثورة والحرب الأهلية ، وسمعنا صوتا يقول :

« الآن جاء وقت الاختبار لمنظمة الشباب » نعلم هذا ، والكل يريد أن يثبت جدارة فى هذا الوقت ، واصل حديثه قائلا :

« لقد بدأت اليوم فعلا مجموعة من منظمة شباب المعهد ، العمل فى بناء الخط الجديد لمترو الأنفاق ، لأن هذا الخط ، يجب الانتهاء منه بسرعة ، ليستخدم كمخبأ اضافى لسكان موسكو » •

تحدث بعض أعضاء المنظمة ، واحدا بعد الآخر ، وتكررت كلمة « خيانة العهد » فى كلماتهم ، واهتم الخطباء بافهام المستمعين ، أن

ألمانيا الهتلرية قامت بالهجوم على الاتحاد السوفييتى ، على الرغم من معاهدة عدم الاعتداء المعقودة بيننا ، وكانت مظاهر السخط على العدوان الغاشم واضحة ، والاصرار على رد المعتدين هو النغمة السائدة .

كان هذا الشعور حقيقيا ، حتى عند أولئك الذين لا زال آباؤهم — أو أمهاتهم — محتجزين فى معسكرات العمل الاجبارية ، لأنهم عارضوا « ستالين » وحكمه .

حقق هتلر « لستالين » ما لم يحل اليه ، لا بالدعاية ، ولا بالارهاب ، اذ بدت الحكومة فى « الكرملين » فى نظر معظم الناس فى الاتحاد السوفييتى فى تلك الأيام من عام ١٩٤١ م ، فى ثوب الممثل الحقيقى لمصالحهم .

كانت تقف بجوارى طالبة ، طالما تبادلت معها فى أحاديثنا بين وقت وآخر نقد النظام الحاكم ، مالت الى فى هذا الاجتماع وهمست فى أذنى : « الأمر فى هذه المرة ، يختلف تماما عن ذى قبل » .

وفى نهاية الاجتماع ألمح بعض الطلبة الى مبدأ العالمية ، ولكنهم سرعان ما اختفوا بين الطلبة . عدنا الى المدينة الجامعية ، وشعورنا الداخلى يتمزق وبعد أن نمنا بضع ساعات — كانت تلك ليلة ٢٤ يونيو — انطلقت صفارة الانذار ، وسمعنا الراديو يذيع ثلاث كلمات فقط ويرددها دون انقطاع :

« مواطنون ! هجوم جوى ! » كلمات ثلاث ، سمعناها فيما بعد مرارا وتكرارا .

سمعنا هذا الانذار لأول مرة فى هذه الليلة ، واستمرت الصفارة تطلق عويلها بعضا من الوقت ، حتى استيقظنا ، فقفزنا من السرير ، والنوم لا زال فى جفوننا ، وتمتم صديقى الذى اشترك فى الحرب الأهلية فى أسبانيا :

« صوت مزعج ! لقد نسيت هذا الصوت ، لأنى لم أسمعه منذ أكثر من عامين ، منذ أن كنت أسمعه فى برشلونه » .

لبسنا الكمامات الواقية ، واتجهنا الى المخبأ ، وكان فى « بدروم » كئيب ، تبين أنه لم يعد بعد ليكون مخبأ على الاطلاق . كان السكون مطبقا فى بادىء الأمر ، ثم سمعنا صوت محرك على بعد ، وصوت المدفعية المضادة للطائرات .

كان هذا مزعجا لنا جميعا ، ومثيرا لأعصابنا ، وكان معنا — كما كان

فى كل مكان — بعض أفراد . يدعون أن لديهم خبرة بالعلوم العسكرية ، حاولوا أن يتبينوا نوع الطائرات من صوت المحرك ، ولم أصدق ما قالوا ؛ لأنهم ذكروا نوعا واحدا ، عرفنا عنه بعض الشىء فى دروسنا العسكرية التى أخذناها فى المعهد .

والشخص الوحيد الذى عرفت أن لديه خبرة ، هو زميلى فى الحجرة ، لأنه اشترك فى الحرب الأسبانية . استمرت مكانته فى هذا المجال ترتفع فى أعيننا كل دقيقة ، وبالطبع حتى الصباح التالى فقط ، لأن الصحف الصباحية نشرت أن غارات الأمس كانت غارات وهمية للتدريب وللتأكد من سلامة أجهزة الدفاع الجوى ، وقدرة الدفاع المدنى فى المدينة . وبهذا بلغت الحالة ذروتها ، اذ لم يعد فى الامكان اخفاء ما اتخذ من اجراءات عسكرية فى هذه المنطقة . وبدا واضحا أن المستويات العليا فى الحزب والحكومة ، لم تكن تتوقع هجوما على الاتحاد السوفييتى فى يونيو ، ولذا فهم مضطرون الى ترتيب الاستعدادات العسكرية من الألف الى الياء .

تنظيم الدفاع الجوى ، تكوين فرق الدفاع المدنى ، وفرق الاسعاف ، اعداد الأدوار المسخوطة « بدروم » فى المنازل ، وتحويلها الى مخابىء ، تنفيذ اجراءات تقييد الاضاءة ، وبناء وسائل الخداع ، وتمويه العدو .

قام العمل على قدم وساق ، فى اعداد كل هذه النواحى ، وفى غضون أيام قليلة ، تغير وجه مدينة موسكو ، فالمبانى الضخمة مثل : مقر مجلس الوزراء ، والفندق السياحى المقابل (Moskowa) طليت باللون القاتم ، فاختفى لونها الأبيض الزاهى ، ونقشت الشوارع الرئيسية فى المدينة ، بنقوش توحى اليك بأنك تمشى فوق أسطح منازل صغيرة ، كذلك الميادين الكبرى مثل : ميدان المسرح ، وميدان الثورة ، نقشت فيها نقوش تشبه أسطح المنازل . وغطيت الساحات الكبيرة الخالية ، بهياكل من الخشب على هيئة أسطح منازل ، حتى نهر موسكو ، غطى كله بالخشب كى يضللوا طائرات العدو ، ويحولوا بينها وبين التعرف على معالم المدينة .

وفى قنوات مترو الأنفاق وضعت بسرعة فائقة ألواح الخشب على القضبان فى كل الخطوط ، فأعد النفق بذلك ليكون مخبأ كبيرا يسع كل سكان المدينة . وبعد أيام قليلة ، انتهت الاستعدادات ، وأصبح فى وسع الجزء الأكبر من سكان المدينة حماية أنفسهم داخل النفق ، اذ

يبلغ عمقه ما بين ١٦ ، و ٣٥ مترا تحت الأرض ، كانت كل الأنفاق مفتوحة للجمهور ، ما عدا منطقة محطة (Kiriwskaja) فقد حجزت للهيئات الدبلوماسية ، وللشخصيات البارزة ، ووقع الاختيار على هذه المحطة بالذات ، لأنها أعمق منطقة تحت الأرض .

كانت تطلق المناطيد « بلونت » فى الجو فى مساء كل يوم عند حلول الظلام ، وهى مربوطة الواحدة بالأخرى بخيوط خاصة ، وتقوم هذه المناطيد بدور فعال ضد طائرات العدو .

أعلن فى صباح يوم ٢٤ يونيو ، أن على كل أعضاء منظمة الشباب ، التجمع فى المعهد . وبعد أن تجمعنا توجه بنا سكرتير المنظمة من هناك الى منزل المعلمين فى شارع « كروبوتكين » فرأينا معالمه قد تغيرت ، ولم يعد المرء يستطيع التعرف على معالمه الأولى ، ورأينا آلاف من أعضاء المنظمة هناك ، بعضهم بملابس التدريس ، ويحمل عدد كبير منهم الكمامات الواقية فى كتفه .

قوبل السكرتير المحلى لمنظمة الشباب بالتصفيق والتهليل ، ولم يتكلم سوى كلمات قليلة :

« أيها الرفقاء ، لقد استدعاكم المجلس المحلى لمنظمة الشباب للقيام بعمل خاص . يتلخص فيما يلى :

لقد وصلت اليوم لافتات جديدة ، يجب أن نعلقها اليوم فى الشوارع ، لهذا تقرر تجنيد أعضاء منظمة الشباب فى مدينة موسكو لهذا العمل » .

وبسرعة عجيبة ، تكونت مجموعات ، حملت اللافتات وأدوات اللصق . ثم تلقت كل مجوعة اسم الحى الذى كلفت بلصق اللافتات فيه . أخذت مجموعتى ثلاث أنواع من اللافتات :

واحدة موجزة ، كتب عليها بالخط الأسود الكبير ، ذلك الحل الرئيسى ، الذى أذيع سابقا ، وهو :

« قضيتنا عادلة » ، « سيهزم العدو » ، « النصر حليفنا » .

وما خط على اللافتتين الأخريين كان مثيرا للاهتمام ، فعلى احداهما رسمت صورة لمعاهدة عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتى وألمانيا التى عقدت فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ م ، وفى ظلها وقف مواطن سوفييتى ، يبدو عليه أنه مسالم ، يحتمى بالصورة وهو يقوم بعمله

السلمى ، وفى نفس الوقت يطعن جندى نازى المعاهدة من لجانب الآخر ، ويجرح المواطن السوفييتى .

وبدت الصورة الأخرى أكثر تأثيرا ؛ وحتى ذلك الوقت ؛ لم أر فى الاتحاد السوفييتى لافتة ؛ لها وقع هذه الصورة ؛ وأعتقد أنهم لم يرسموا صورة مثلها طوال سنى الحرب الأربعة :

اذ ترى فى خلفيتها ظل نابليون ؛ رسم بطريقة ساخرة ؛ واندحار جيشه عند عبوره « بيريزينا » .

ورسم فى مقدمتها . بألوان زاهية ؛ كاريكاتير « هتلر » على الجانب الأيسر أعلى الصورة . وعلى الجانب الأيسر فى أسفلها كتب رقمان بالخط العريض : ١٨١٢ . و ١٩٤١ م . ثم كتب النص تحتها . من أربع كلمات باللغة الروسية : « هكذا كان — ومثله سيكون » .

* * *

تحويل نغمة الدعاية

أعلن بعد بدء الحرب بوقت قصير ؛ أن كل أجهزة الراديو ستسحب من أصحابها . وطلب من كل مالك لجهاز راديو أن يسلمه فى ظرف ٤٨ ساعة ؛ الى أقرب مكتب بريد ؛ ويأخذ ايصالا بذلك .

طال طابور المنتظرين تسليم أجهزتهم أمام مكاتب البريد ، وقفوا صابرين ؛ متحملين ؛ ليتخلصوا من أجهزتهم . كان المكتوب على الايصال أن حامله سوف يسترد جهازه بعد انتهاء الحرب ؛ ولم يصدق ذلك سوى عدد قليل ؛ أما الغالبية ؛ فاعتقدت اعتقادا جازما من أول الأمر ، أنها لن ترى أجهزتها بعد اليوم ؛ سحبت الأجهزة وألقيت فى أفنية مكاتب البريد المكشوفة ؛ وتركت فى العراء لتقلبات الجو .

وفى نفس الوقت نزلت التعليمات ؛ بأنه لا يجوز اغلاق السماعات الاذاعية الموجودة فى المساكن الجماعية ؛ والمؤسسات ؛ والمصانع ؛ ولم يكن هناك أى اعتراض على هذا الأمر .

كانت أجهزة الراديو فى عام ١٩٤١ م — وكذلك اليوم — (عام ١٩٥٥ م) من الأشياء الكمالية ؛ التى لا يقدر عليها الا فئة قليلة ؛ ولهذا وضعت أجهزة صغيرة سوداء ؛ كروية الشكل فى كل المؤسسات ؛ وفى المساكن الجماعية ؛ وفى بيوت الطلبة ؛ وفى النوادى ؛ وفى كل الأماكن العامة ؛ لا تذيع الا برنامج الاذاعة السوفييتية . وكانت — ولا تزال

الى اليـــوم ــ النوع الوحيد لأجهـــزة الراديو المنتشرة فى الاتحـــاد السوفييتى •

أصبح ــ بعد سحب أجهزة الراديو ــ ممكنا أن يسمع كل المواطنين السوفييت أخبارا متشابهة ، وبرنامجا واحدا ، لأن المحطات الاذاعية التزمت التعليمات حرفيا ، لدرجة أنها كانت تكرر نفس الألفاظ • واتمام هذه الاجراءات أنشىء برنامج محلى صغير • فأصبح مركز الدعاية السوفييتى الوحيد ، متحكما فى توجيه التيارات التى تؤثر على الشعب كله ، لأنه لم يكن بامكان أحد أن يسمع مصدرا آخر غير ما يرسله اليه هذا المركز • ورأى زعماء الاتحاد السوفييتى أن ذلك الأمر أكثر الحاحا من ذى قبل ، فانطلقت الدعاية فى الأيام الأولى للحرب ، بأقصى ما يمكن أن يعمل فى مجال « البروباجندا » وكان من المدهش أن تتحول الدعاية بهذه السرعة ، وتركز على الشعور بالوطنية وحب الوطن والحـــرب الوطنية ، وسرعان ما اختفت كلمة « الحزب » ، و « الاشتراكية » و « الشيوعية » من قاموس الاستعمالات اللغوية الدعائية •

لم يكن هذا التغيير ــ كما حدث فى معظم الأحوال السابقة ــ مجرد مناورة وقتية ، بل ممارسة منطقية لتغيير الأيديولوجية ، التى كانت سائدة مسيطرة فى سنى ما قبل الحرب • فالمفاهيم التى كانت سائدة ، حتى عام ١٩٣٥ م فى المقالات ، والأغانى ، كانت تشير الى امكانية وقوع هجوم على الاتحاد السوفييتى ، وتتحدث عن « الحرب الثورية » ، و « الطبقات » •

توارت هذه المفاهيم قبل الحرب بوقت طويل ، وشيئا فشيئا احتلت كلمة الوطنية السوفييتية المركز الأول فى أسلوب الدعاية ، دون أن تختفى تماما المفاهيم السابقة ، فأثناء النزاع مع اليابان فى صيف عام ١٩٣٨ م ، عندما وقع كثير من حوادث محلية ، على الحدود عند بحيرة (Chasan) فى الشرق الأقصى ، استعملت الدعاية كلا النوعين من الشعارات ، وكانت الصيغة الرسمية آنذاك :

« من أجل الوطن ، من أجل الشيوعية » •

ظل الاتحاد بين الشعارين يكرر بوضـــوح فى برنامج الدعـــاية السوفييتية ، حتى عام ١٩٤١ م ، ولأجل أن يكونوا لهذين الشعارين شعبية فى المجتمع ، عملت أفلام سينمائية ، وطنية ، جديدة فى نوعها فهى تدور حول كفاح الجيش الأحمر فى عامى ١٨ / ١٩١٩ م ، وعلى

العكس من اتجاهات الأفلام السابقة ، فلم يظهر أدميرال القوات البحرية ، فى صورة مخزية ، بل على العكس ، بدا فى الأفلام الجديدة ، يقوم بأعمال مشرفة للوطن .

وعلى الرغم من عصره الذى كان يختلف تمام الاختلاف عن العصر الحالى ، وعلى الرغم من اختلاف أسلوب الحياة بين العصرين ، فقد خدم الأدميرال — كما يصوره الفيلم — بشرف وأمانة ، فى أسطول الجيش الأحمر . وقف مع وكيله — أو خليفته الذى كان أصلا حارسا له — بدون تكلف ، وكأنهما صديقين ، كلاهما قاتل بشجاعة ، وغادرا السفينة الغارقة « الصليب » الأدميرال وهو يردد : من أجل الوطن !

ووكيله وهو يردد : من أجل الشيوعية !

الآن ، بعد بدء الحرب ، سار التحول فى الدعاية خطوة أخرى الى الأمام ، اذ أصبحت كل وسائل الدعاية تتحدث فقط عن الوطن ، والوطنية ، والأرض الروسية . ولم يحتل الاتجاه الجديد الاذاعة ، والصحافة فقط ، بل ترجمته ، وعبرت عنه اللافتات ، والاعلانات التى كانت تعلق فى الشوارع بالصورة والكلمة . ففى الأسابيع الأولى للحرب تكون ما يعرف باسم « فترينة تاس » لهذا الغرض ، و « تاس » رمز لمكتب وكالة الأنباء السوفييتية الرسمية ، و « فترينة تاس » جمعية . أعضاؤها من الفنانين والشعراء السوفييت ، الذين كرسوا مواهبهم لخدمة الدعاية ، أثناء الحرب ، ولم ينتجوا عددا قليلا من الصور ، والكلمات التى تحتها ، ثم تركوها تكرر ، بل قاموا بانتاج سلسلة كبيرة من الصور . وتحت كل صورة كلمات قليلة منظومة ، وساروا فى عملهم على المنهج الذى كان متبعا أثناء الحرب الأهلية ، عندما كون الشعراء والرسامون — وكان من بينهم « مایاكوفسكى » — آنذاك جمعيتهم التى عرفت باسم « فترينة روستا » .

كان الأصل يعلق يوميا — وكان يظهر كل يوم تقريبا لافتة ، جديدة ، أو سلسلة جديدة من الصور — فى شارع (Kusnjetzki Most) وهو أكبر شارع تجارى مشهور فى موسكو . وكان أحسن ما فى الصور ، يطبع منه أعداد لا حصر لها ، وتنشر فى الصحف أيضا . وكان مدهشا أن يكون لدى هذه المجموعة من الشعراء والفنانين ، هذه الأفكار الغزيرة ، والعدد الكبير من الصور المؤثرة ، مما جعلها تلعب دورا كبيرا فى حقل الدعاية السوفييتية أثناء الحرب ، فقد جذبوا كثيرا

من المواطنين عجزت المقالات فى « برافدا » عن جذبهم ، فقد كانت سلسلة الصور حية وتعبر عن أفكار جديدة ، مغايرة كل المغايرة للمقالات الرسمية المملة التى كانت تنشر فى « برافدا » .

وعرض بعد أسابيع قليلة فيلم سوفييتى معروف ، أعيد تمثيله ليناسب الوضع الراهن . شاهدت هذا الفيلم متعجبا من الفكرة الجديدة التى أضيفت للفيلم المشهور « تشاباييفا » ، فعندما عرض فى عام ١٩٣٤ فيلم عن « تشاباييفا » كانت نهايته ، أن البطل الروسى فى الحرب الأهلية ، عندما كان يحاول سابحا الوصول الى الضفة الأخرى لنهر « بيـــلايا » عند « أوفـــا » أصابته رصاصة من سلاح الرجل الأبيض وغرق . أما النهاية فى الفيلم الجديد :

« تشاباييفا » لم تصبه الرصاصة ، بل عبر النهر ، ووصل سالما الى الضفة الأخرى ، ثم خطب خطبة قصيرة :

« كما مزقنا البيض فى الحرب الأهلية ، فسوف نهزم اليوم العدو اللدود ، الفاشية الألمـــانية » .

اتبعت هذه الطريقة ــ وهى اضافة بعض المشاهد المناسبة للعصر فى الأفلام القديمة ــ فى المسرحية المشهورة : « شاب من مدينتنا » . وتدور حوادث هذه المسرحية ــ وكذا الفيلم المقتبس عنها ــ حول مواطن سوفييتى ، شاب ، أسره النازيون أثناء الحرب فى أسبانيا ، وحقق معه جنرال ألمـــانى ، ثم أعدم .

يعرض هذا الفيلم الآن بصورة أخرى أيضا :

يحقق معه الجنرال الألمـــانى ، وبعدها يتمكن من الهرب من الأسر ، وتمر الأيام ويأسر الجيش الأحمر هذا الجنرال الالمـــانى ، ويلتقى وجها لوجه مع الشاب السوفييتى .

ركزت الدعاية السوفييتية فى الأيام الأولى للحرب على حوادث الجنود الألمـــانيين ، الذين يهربون من الجيش الألمـــانى ، ويلجأون الى الجانب الروسى ، وسمعنا بذلك بعد أيام قليلة من بدء الحرب أثناء اجتماع اللاجئين السياسيين الألمـــانيين ، الذين يعيشون فى موسكو . اذ عندما تقابلنا فى اللجنة المركزية لـ « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين من أجل الثورة » (M.O.P.R.) كان الجو متوترا أكثر من ذى قبل اذ كنا نعلم جميعا أنه ليس اجتماعا لتثقيف اللاجئين سياسيا . فقد

اقتصر قائد المدرسة على جملة واحدة ، وهو قوله : أقدم لكم الرفيق « أولبريخت » •

ألقى « أولبريخت » كلمة قصيرة أيضا ، تحدث فيها عن جرائم الفاشية ، وعن خطورة الموقف ، وعن تجنيد كل الامكانات والقوى ضد الفاشية حتى النصر ، ثم قال :

« نحن نعيش الآن فى أيام الحرب الأولى ، ومع ذلك أستطيع أن أخبركم بأنباء سارة ، فى يوم ٢٢ يونيو هرب أول جندى ألمانى ، والتجأ الى الجانب السوفييتى » •

قوبل النبأ من « أولبريخت » بتصفيق حاد ، وتهليل ارتفعت فيه الأصوات الى عنان السماء ، ثم أنصتنا بتركيز حاد الى المزيد من التفصيلات ، فقال :

« كان هذا الجندى فى رومانيا مع القوات المعسكرة عند نهر (Pruth) وفى ليلة ٢٢ يونيو سمع فى المعسكر أن الأوامر صدرت بالهجوم على الاتحاد السوفييتى ، فابتعد متسللا عن قواته ، ثم عبر النهر سابحا ، حتى وصل الى جانب الجيش الأحمر ليخبره ، بأن هجوما نازيا على الاتحاد السوفييتى سيبدأ فى غضون ساعات قليلة » • مال على جارى ، وهمس فى أذنى :

« اذا هرب جندى الى الجانب السوفييتى قبل بدء الحرب ، فماذا يكون الوضع عندما يحمى وطيسها ! » •

اشتهر أمر هذا الجندى بعد أيام قليلة فى جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى ، اذ ذكر نبأ هروبه فى أول بلاغ حربى سوفييتى ، كما ذكرت « برافدا » صورته ، وأقواله :

« أنا — هكذا بدأ « ألفريد ليسكوف » — ضد نظام هتلر منذ وقت طويل ، وعندما علمت أن الهجوم على وشك الوقوع ، عزمت على الهروب الى الجيش الأحمر ، ولم يكن أحد منا يعلم بأنباء هذا الهجوم ، قبل وقوعه حتى اليوم السابق لساعة الصفر ، ولم يكن أحد منا يعتقد بامكانية وقوع هذه الخيانة ، ويمكن للمرء أن يتخيل ، كيف يتقبل الشعب الألمانى هذه المغامرة » •

أعلن بعد يومين أن طائرة من طراز (Ju 88) قد هبطت فى « كييف » اذ قرر كل أفراد طاقمها الأربعة وهم :

صف ضابط « هانز هيرمان » من « بريسلا » ، ملاحظ « هانز كراتو » من « فرانكفورت » ، عريف أول « أبل » من « بروين » ، عامل الاتصالات اللاسلكية « فيلهلم شميت » .

قرروا بالاجماع الهبوط فى مطار سوفييتى . وذكر بيان نشر فى كل الصحف السوفييتية ، أنهم يعملون سويا منذ سنة ؛ وأنهم اشتركوا فى غارات جوية على « لندن » و « بورت سموث » و « بلايموث » ، وغيرها من المدن الانجليزية ، وذكروا أنهم كانوا يسئلون أنفسهم : « لماذا يحارب « هتلر » العالم كله ؟ ولماذا يقتل كل الشعوب الأوروبية ، ويحطم أوروبا ؟ ... وعندما أعلن « هتلر » الحرب على روسيا ، قررنا تنفيذ ما عزمنا عيه ، وفى يوم ٢٥ يونيو تخلصنا من حمولتنا ، وهبطنا فى « كييف » .

كذلك هرب طاقم من الطيارين الألمانيين الى قوات الاتحاد السوفييتى فى اليوم التالى .

فجرت تقارير الجنود الهاربين من صفوف القوات الألمانية موجة من الثقة بالنفس ، وسيطرت فى الأيام الأولى للحرب تصورات خادعة على المنفيين الألمانيين المقيمين فى روسيا .

فكما علمت مؤخرا ، أن الموقف الروسى آنذاك علق أيضا آمالا كبيرة على التأثير الدعائى على القوات الألمانية المتقدمة ؛ ففى مطبعة : (Iska ra Revoluzii) كان يطبع كل يوم فى الأسابيع الأولى للحرب اثنا عشر منشورا تقريبا ، مختلفة الصيغة ، والأخبار المختلفة باللغة الألمانية ، غير أنها كانت ضعيفة جدا ، وليس من النادر أن جنود القوات الألمانية المتقدمة كانت تسخر منها .

وسرعان ما تبددت آمال الأيام الأولى للحرب ، وبان أنها كانت سرابا خادعا ، فقد أثر التقدم السريع للقوات الألمانية ، على اختلاق الأخبار عن هروب الجنود الألمانيين من مواقعهم ، فاختفت شيئا فشيئا ، وتضاءلت الدعاية الموجهة الى القوات الألمانية ، عن طريق الايحاء بهروب أفرادها ، وتركزت كلها تقريبا على الموقف العسكرى ، والعمليات الحربية ، ويتضمن فى المقام الأول بالنسبة للمدنيين فى موسكو :

« بناء قواعد الدفاع الجوى ، وتكوين الدفاع المدنى » .

* * *

الدفاع المدنى فى موسكو

تكونت بعد خمسة أيام من بدء الحرب فرقة الدفاع المدنى فى المعهد والمدينة الجامعية ؛ وكان كل أعضاء فرقة الوقاية من خطر الغارات ، والفريق الطبى طالبات ؛ أما الطلبة فكونوا فرقة اطفاء الحرائق • تم تكوين الفرق فى دقائق ، وعلى كل فرد القيام بخدمة ليلية كل يومين ؛ وقيل لنا :

« يجب أن تتواجدوا على السطح ، ابتداء من الساعة التاسعة ؛ فاذا ألقى العدو قنابل حارقة ، فعليكم أن تسرعوا باطفائها بأقصى ما يمكنكم ، وسوف تأخذون دروسا فى كيفية اطفاء الحرائق فى الصباح » •

وفى صباح اليوم التالى ، قدم شاب نفسه لنا بأنه المدرب ثم بدأ الشرح :

« المسألة تتلخص فيما يلى : لابد أولا من اخلاء الأدوار العليا من كل شىء قد يساعد على الاشتعال ، وأن يكون لديكم عدد كاف من أكياس الرمل ، ومن المجارف ، وأدوات لنقل المياه • ومن الأمور التى لابد من الالتزام بها عسكريا ، تعيين حارس على السطح ، يكون متيقظا تماما ، فاذا ألقيت قنبلة حارقة تلتقطونها بكلابة كبيرة « كماشة » ، وتدفنونها فى أحد أكياس الرمل الكبيرة » •

وبمثل هذا الأسلوب أعطانا نصائح طيبة أخرى ، يبدو أنه نفسه تعلمها فى اليوم السابق فقط ؛ هذا هو كل شىء يتعلق بالتدريب •

كنت ألاحظ أن استعدادات الدفاع المدنى فى وقت الحرب قليلة جدا ، وعلى الرغم من الخطة المرتجلة — أو ربما لهذا السبب بالذات — سارت الأمور عندنا نسبيا سيرا حسنا ، ففى غضون ساعات قليلة ، أخلى الدور العلوى فى مسكن الطلبة من كل شىء ، وملىء بأكياس الرمل والمجاريف ، وأدوات نقل المياه • ثم جهزت الكلابة الكبيرة الحديدية ، التى سنستعملها فى القضاء على خطر القنبلة الحارقة ، ثم أقيم بعد بضعة أيام كشك صغير على السطح ليجلس فيه الحارس المعين •

كانت تلك هى أيام الدفاع المدنى ، فبعد يومين وقع انذار بغارة جوية ، ثم تلاه ثان ، وثالث ••• الخ ، ولكن لم تظهر أى طائرة ألمانية فى سماء موسكو ، وقيل :

« ان صفارات الانذار تطلق فى موسكو ، لو ظهرت طائرات ألمانية فى سماء « سمولنسك » •

تسلقنا بهدوء على السطح ، وقمنا ببعض التمرينات ، وكان مزاجنا معتدلا ، اذ كنا متأكدين أنه لن تنجح أى طائرة ألمانية مستقبلا فى احتراق سماء موسكو • وكان هذا صحيحا ، حتى يوم ٢٢ يوليو • لم يكن عندى فى هذا اليوم خدمة ليلية ، وكنت على بعد ١٥ دقيقة تقريبا من مسكن الطلبة ، عندما أطلقت صفارة الانذار • ولأول مرة تطلق صفارة الانذار وأنا خارج السكن ، تدفق الناس دون انقطاع الى المداخل الكبيرة لنفق المترو ، وبكل هدوء وقفت فى الطابور الطويل الذى امتد أمام محطة (Dserschinskaja) ، آلاف من البشر ألقت بنفسها على ألواح الخشب فى سراديب النفق •

مرت نصف ساعة ، فساعة ، فساعتان ، ولم تطلق صفارة الأمان ، وفجأة انتشرت الاشاعة :

« هى غارة حقيقية فى هذه المرة ، فالطائرات الألمانية فى سماء موسكو الآن » •

وبعد بضعة دقائق سمعنا انفجارا ، كان ضعيفا جدا وبعيدا ، ولكن كان من الواضح ، أن لا مجال للشك ، فى أن الطائرات الألمانية اخترقت الحواجز الدفاعية ، وألقت القنبلة الأولى على موسكو •

وفجأة دوى انفجار شديد ، يبدو أنه هنا فى هذا المكان ، وعلى عمق كبير تحت سطح الأرض ، فقد شعرنا بهزة عنيفة ، فقام النائمون مذعورين وصرخت النساء • وفى غضون لحظة واحدة ، فر مئات من الناس ، يبغون الهرب الى أى مكان ، ثم حدث انفجارا آخر قوى ، فساد الهلع ، والفزع الذى كان يمكن أن يسبب ضحايا أكثر من ضحايا القنبلة نفسها •

صاح رجل مهددا : « الى أين أنتم ذاهبون ! » ثم تلاه صوت أقوى : « اثبتوا مكانكم فهذا المكان أكثر أمنا لكم » هدأ الناس ، وجلسوا ، فزال الخطر الذى كان متوقعا من جراء هلع الناس وفزعهم ••

كان هذا أول اختبار لسكان موسكو ، ففى هذه الليلة ، ليلة ٢٣ يوليو حدث لأول مرة ، ما لم يكن أحد يعتقد قبل شهر أنه ممكن ، ألا وهو : قذف موسكو بالقنابل الألمانية •

* * *

الزحـف الألمـانى

تقدمت القوات الألمـانية على طول الجبهة ، من البحر المتجمد حتى البحر الأسود بسرعة مهولة • وكانت البلاغات الحربية فى الأسابيع الأولى للحرب غير واضحة اطلاقا ، فأسماء المناطق لم تذكر الا نادرا ، وغالبا ما كان الحديث عن « الاتجاهات » أو « الاقليم » — دون تحديد — الذى يدور فيه القتال ؛ ولم تنشر خريطة ، تحدد المكان الذى تدور فيه المعارك •

غير أن ما يسمى بـ« الاتجاهات » وذكر « الأقاليم » أشار لنا الى سرعة تقدم القوات الألمـانية ، ولم يصدر أى بيان عن سرعة هذا الزحف •

وفى ٣٠ يونيو — أى بعد ثمانية أيام من بدء الحرب — تكون مجلس دفاع وطنى للاتحاد السوفييتى تحت قيادة « ستالين » وكان أعضاؤه فى بداية الأمر : « مولوتوف » و « موروشيلوف » و « مالينكوف » و « بيريا » فقط •

تركزت كل السلطات فى الاتحاد السوفييتى فى يد هذا المجلس ؛ وفرض على كل سكان الاتحاد السوفييتى ، بما فيهم أنظمة الحزب ؛ والدولة ومنظمة الشباب وجميع أفراد القوات المسلحة ، فرض عليهم جميعا تنفيذ قرارات وأوامر هذا المجلس دون أدنى اعتراض • ثم أعلن بعد أيام أسماء المسئولين عن الدفاع فى المناطق : ففى الجبهة الشمالية الغربية ؛ مارشال « فوروشيلوف » وفى الغربية الجنوبية مارشال « بودجونى » وفى الغربية وزير الدفاع ؛ مارشال « تيموشينكو » •

تسبب هذا البيان فى احداث تغير انفعالى وقتى لدى الشعب ، فكثيرا ما كنا نسمع :

« لم نشرع فى الاستعدادات والتنظيمات الا الآن ! من اليوم ستبدأ الحرب الحقيقية ؛ وسيحدث بالتأكيد تغيير جذرى فى الموقف العسكرى على الجبهة » •

ولكن لم يأت هذا التغيير ، فلا زالت القوات الألمـانية تواصل زحفها الى الأمام •

أذاع « ستالين » كلمة فى الراديو فى الساعة السادسة من صباح ٣ يوليو ، وكانت أول كلمة له منذ بدء الحرب • لقد سمعته قبل ذلك أكثر من مرة ؛ ومع ذلك لم أعرف صوته هذه المرة ؛ أنصت بكل احساس

الى بداية كلمته ، فبدلا من البداية المعروفة : « أيها الرفيقات ! أيها الرفقاء ! » بدأ خطابه هذه المرة على النحو التالى :

« أيها الرفقاء ! أيها المواطنون ! أيها الاخوة والأخوات ، أيها المقاتلون فى جيشنا وأسطولنا ! أتوجه اليكم يا أصدقائى .. » . كان يبدو عليه — من صوته — التأثر والاستعطاف ، وشعرت بعد الكلمات الأولى ، أن الموقف خطير جدا ، وليس كما تصوره البلاغات الحربية .

فسر « ستالين » الزحف السريع للقوات الألمانية فى الأراضى السوفييتية ، بأن الحرب بدأت تحت ظروف ، هى فى صالح ألمانيا النازية ، وليست فى صالح الاتحاد السوفييتى ، فالقوات الألمانية — هكذا كان شرحه — أتمت استعداداتها العسكرية ، وانتهت من كل ما يتعلق بالتجهيزات والتدريبات ، ولم يكن ينقصها سوى اشارة بالهجوم . أما القوات الروسية ، فقد قذف بها الى ساحة المعركة ، قبل أن تستكمل تدريباتها الميدانية .

ناشد « ستالين » أفراد الشعب السوفييتى ، أن يستمروا فى أعمالهم ، وألا يدعوا القلق يستولى على مشاعرهم . وحثهم على :

— توجيه كل الجهود لخدمة المعركة .
— الدفاع عن كل شبر من تراب الأرض السوفييتية .
— تقوية الجبهة الداخلية ، لتكون سندا للجيش الأحمر .
— زيادة الانتاج الحربى .

وأن يشنوا حربا لا هوادة فيها ضد :

— المخربين فى الجبهة الداخلية .
— من لا يلتزمون النظام ، ولا ينفذون الأوامر .
— مثيرى الرعب والفزع بين صفوف الشعب .
— مروجى الاشاعات .

وطلب أن يسلم الى المحكمة العسكرية — فورا وبدون ابطاء — كل أولئك الذين يروجون الاشاعات ، أو يدعون الى تثبيط الهمم فى الدفاع عن الوطن .

وأشار بنوع خاص ، الى أنه يجب نقل الممتلكات الى ما وراء الجيش الأحمر ، عندما يضطر الى التراجع . وكل الأشياء ذات القيمة ، مثل المعادن ، والحبوب ، ومواد القوى المحركة ، كالبترول والفحم ، التى لا يمكن نقلها ، يجب تدميرها واهلاكها .

وأخيرا دعا الى تكوين جيش شعبى فى كل مدينة ، تكون واقعة تحت تهديد العدو ، ليساند الجيش الأحمر •

كنت أعلم أن « ستالين » ليس خطيبا حماسيا ، فقد كان دائما يتحدث ببطء تام ، وبواقعية ، هادئا ، متزنا فى كلماته • وعندما سمعنا خطابه فى هذه المرة ، تبادلنا نظرات حائرة : لم يتحدث « ستالين » يوما ما وهو مرتبك ، ومتلعثم ، كما فى هذا اليوم • لقد أظهر لنا هذا الخطاب ، أكثر مما بينه لنا الزحف السريع للقوات الألمانية ، وأكثر مما وضحته لنا البلاغات الحربية حتى الآن • أظهر لنا الوضع الحقيقى للموقف فى الاتحاد السوفييتى فى أوائل يوليو سنة ١٩٤١ م •

وقعت « ليتاون » وكل منطقة « ليتلاند » و « ايستلاند » ، والجزء الأكبر من روسيا البيضاء ، وغرب « أوكرانيا » فى يد القوات الألمانية بعد أسبوعين من بدء الحرب • كان الزحف أسرع بكثير ، مما كان يمكن أن يتصوره المتشائمون فى ٢٢ يونيو •

راجت الاشاعات المحمومة فى موسكو ، وقالت لنا احدى الطالبات هامسة : « يدعى الألمانيون أن ابن « ستالين » التجأ اليهم ، ويقال : ان هذا الخبر أذيع من اذاعتهم ، مشفوعا بحديث خاص ، كان قد دار بينه وبين أبيه ، فغالبا ما كان الابن يدعو الى مقاومة ديكتاتورية « ستالين » •

وكان من الطبيعى أن تسرع هذه الطالبة فى اظهار سخطها على هذه الاشاعة ، ولكننا فكرنا طويلا فى هذا لا لأننا سنتأثر بها — كنا نتمنى النصر للاتحاد السوفييتى — ولكن لأننا كنا نخشى التأثير الخطير لمثل هذه الاشاعة على أولئك الذين لم يتثقفوا « سياسيا » •

لم نكن الوحيدين ، الذين أصابهم القلق من هذه الاشاعة ، فقد صدر بلاغ خاص من الرئاسة العليا للاتحاد السوفييتى ، جاء فيه : « لقد تقرر عقاب أولئك الذين يروجون الاشاعات الكاذبة أثناء الحرب لبلبلة الأفكار ، واشاعة الذعر بين المواطنين ، بالسجن مددا تتراوح بين سنتين وخمس سنوات ، اذا لم تتسبب جريمتهم فى احداث آثار أخرى تقتضى عقوبات أقصى » •

لم تتغير صورة مدينة موسكو ، حتى منتصف يوليو ، باستثناء تغيير معالم الشوارع ، والميادين ، والمبانى الهامة ، وبناء المخابىء ، وعمل المناطيد التى تطير فى سماء موسكو عند حلول الظلام • ولم يزل

كثير من سكان موسكو يذهبون فى تلك الأيام الى المتنزهات ، للترويح عن أنفسهم بعد أعمالهم اليومية ،كذلك كان العمل فى المحلات ، والمطاعم عاديا مثل ما كان فى وقت السلم ، اذ انقطع الاقبال الشديد على شراء المواد الغذائية وتخزينها ، بعد يومين أو ثلاثة من بدء الحرب ، لأن الشعب أدرك ، أنه لن يكون هناك نقص فيها ، أو على الأقل لا يتعدى النقص حدوده المألوفة وقت السلم .

وفى ١٤ يوليو تغير هذا الوضع رأسا على عقب ، وبسرعة ، فقد ظهر سكان موسكو مرة أخرى فى الشوارع ، يقفون أمام المحلات والمطاعم فى صفوف طويلة ، أطول مما كانت فى أول يوم فى الحرب .

« ماذا حدث ؟ » كان هذا سؤالى لشاب وقف فى آخر طابور ، امتد طوله حوالى ثلثمائة متر ، فرد على قائلا : « نحاول الحصول على مواد غذائية بسرعة ، فسيكون الحصول عليها ابتداء من الغد بالبطاقة فقط ، ألم تقرأ ذلك فى الجريدة ؟ » .

أخرجت « برافدا » من جيبى ، فلم أجد فيها أى كلمة عن البطاقات التموينية فقال لى الشاب : « ليس فى « برافدا » ! بل فى الجرائد المحلية فقط » . وقفت فى الطابور حتى يئست من الانتظار ، فانصرفت ، لأن الطابور لم يتحرك فى مدى ساعة ، الا مسافة قصيرة جدا .

وفى اليوم التالى طبق نظام بطاقات التموين فى موسكو ، وكان أهم منها بالنسبة لى أخبار جبهة القتال ، فالقوات الألمانية لا زالت تواصل زحفها الى الأمام .

قالت لى احدى المواطنات السوفييت بمرارة وألم :

« لقد تحملنا ألم الجوع سنين عديدة ، تنازلنا عن كل شىء ، وكنا نخرجها من الفم ، لنقتصدها للانشاء ، والدفاع عن وطننا . والآن ! وبعد أسابيع قليلة من بدء الحرب ، تزحف القوات الألمانية على « لينجراد » و « سمولينسك » و « كييف » .

فقلت لها : « هذا تراجع وقتى من القوات الروسية ، فلا تنسى أن القوات الألمانية ، كانت قد أتمت استعداداتها للحرب ، أما القوات السوفييتية ، فقد بدأت الاستعداد لذلك بعد بدء الحرب » . وتلك هى الاجابة التى تلقن لأعضاء منظمة الشباب « المدركين لأبعاد الموقف » . ولكن أصبح عضو منظمة الشباب نفسه فى الأيام التالية متحيرا وقلقا .

ففى ١٧ يوليو عين مفوضون عسكريون فى الجيش الأحمر ، وكنا قد سمعنا من قبل فى المدرسة ، وفى منظمة الشباب ، وفى المعهد العالى كثيرا عن المفوضين العسكريين ، اذ علمونا أن تعيينهم كان فى وقت الضرورة فقط ، فى زمن الحرب الأهلية . فقد كان لدى الجيش الأحمر آنذاك عدد قليل من القيادات ، ولهذا أسند الى الجنرالات والضباط القدامى ، الذين كانوا يخدمون فى جيش القيصر مباشرة القيادة السياسية ، وبعض أنظمة المراقبة المختلفة . وهذا ليس ضروريا الآن ، لأن لدى الجيش الأحمر عدد كاف من القيادات التى يعتمد عليها .

وبعد ثلاثة أسابيع من بدء الحرب اضطروا الى تعيين مفوضين عسكريين . قرأت بامعان ، وتفكير عميق ، النص التفصيلى لقرار تعيينهم : « يتولى « المفوضون العسكريون » تمثيل الحزب والحكومة فى « الجيش الأحمر » وعليهم أن يتحملوا « بالاشتراك مع القيادات » المسئولية الكاملة ، فى تنفيذ الأوامر الحربية الصادرة من « القيادة العليا » ومن واجباتهم : « مراقبة تنفيذ كل الأوامر الصادرة من القيادة العليا مراقبة صارمة » ، وفى نفس الوقت ، تزويد القيادة العليا والحكومة ، بالمعلومات عما يحدث فى كل قطاع من أعمال ، « تمس شرف الجيش الأحمر » ، وينبغى عليهم أن يتخذوا اجراءات صارمة ضد الجبناء ، والهاربين من الخدمة العسكرية . « وهم ملزمون بالقضاء على كل أولئك الخونة قضاء تاما » .

كررت قراءة هذه الجمل أكثر من مرة ، ثم قلت لنفسى : لم نعرف حتى الآن شيئا محددا عن الموقف فى الجبهة ، ترى ماذا يحدث هناك ، اذ أعطى المفوضون العسكريون أمرا صارما بالقضاء على الخونة ، والجبناء ، والهاربين من الخدمة العسكرية !

فوجئنا فى ٢٠ يوليو بتغيير جديد ، فقد عين « ستالين » « وزيرا للدفاع » ، وعين وزير الدفاع السابق « تيموشينكو » — وكان قد عين فى هذا المنصب قبل ثمانية أيام فقط — وكيلا له .

ولكن لم يغير تكوين مجلس الدفاع القومى ، ولا تعيين القائد الأعلى ولا تعيين المفوضين العسكريين ، ولا تولى « ستالين » وزارة الدفاع ، لم يغير هذا كله شيئا من الموقف فى ساحة المعركة ، فالقوات الألمانية تواصل زحفها ، وقد اقتربت من « سمولينسك » .

بدأ فى نهاية يوليو اعداد دور الحضـــانة ؛ ومدارس الأطفـــال الصغار ــ وفيما بعد المصانع أيضا ــ لتستقبل المهاجرين • وشوهدت مرارا طوابير من عربات النقل ، متجهة الى محطة السكك الحديدية ؛ وقطارات البضائع الطويلة متجهة صوب الشرق •

كذلك أظهرت لنا عملية تجنيد المواطنون فى الجيش الشعبى خطورة الموقف ؛ فقد استدعى فجأة الطلبة وكذلك الأساتذة الى الخدمة فى الجيش الشعبى • ولم يكن هذا لشن حرب حديثة على الاطلاق ، بل سيكلفون ــ بعد التدريب القصير ــ بالتعرض بأسلحتهم القديمة ؛ لطوابير دبابات « هتلر » وكنت أرى فى شوارع موسكو طوابير من الناس ؛ بملابسهم المدنية ؛ وهم يحملون الأسلحة على أكتافهم •

وجرى الهمس فى المدينة ؛ بأنهم سيرسلون الى الجبهة ؛ وهم على هذه الحالة • وليس من اللازم أن نذكر أن أفراد الجيش الشعبى ؛ لن يستطيعوا وقف زحف القوات الألمـــانية المتفوقة عليهم بمراحل ؛ وكان وضعهم يشبه وضع الجيش الشعبى الألمـــانى « الصاعقة الشعبية » أمام قوات الحلفاء فى ربيع عام ١٩٤٥ م •

كنا نعيش فى تلك الأسابيع بكل احساسنا ومشاعرنا مع الحرب ؛ لدرجة أن اختفت اتجاهاتنا نحو النقد ــ وهو ما كنا نمارسه همسا فى أحاديثنا العادية ــ وتلاشت معارضتنا لبعض الموقف ؛ اذ كان أهم شىء عندنا جميعا ، هو الكفاح ضد الفاشية • واختفت كل الريب والشكوك ، اذ نادرا ما كان يفكر المرء فى تلك الحوادث المؤلمـــة ؛ وموجة الاعتقالات الجماعية ، التى وقعت فى الاتحاد السوفييتى ؛ قبل بضعة أعـــوام •

وكان الجزء الأكبر من الذين أعرفهم من أعضاء منظمة الشباب والطلبة ؛ يتمنون من كل قلوبهم ؛ أن ينتصر الاتحاد السوفييتى على « هتلر » ولكن مضافا اليه بطبيعة الحال الأمل فى أن تكون الحياة فى الاتحاد السوفييتى بعد الحرب ؛ أكثر حرية ؛ وأقل قيودا من ذى قبل • لقد قاسينا من اجراءات نظام الحكم أكثر من اللازم ، وأرغمتنا الأفكار الـــ« ستالينية » على رفض النظام رفضا تاما ؛ ولكن لم نتمنى سوى أن نستطيع العيش داخل هذا النظام ــ فلم يكن بوسعنا آنذاك أن نتخيل نظاما غيره ــ بشىء من الحرية ، وعدم الارهاب ؛ وأن ننفتح ثقافيـــا مع العالم الخارجى •

وأدركت بعد أيام قليلة ، أن بيننا وبين تحقيق هذين المطلبين المتواضعين مسافة بعيدة جدا ؛ فقد دعيت مع « هانز هانزليتشك » — وهو نمساوى ، كان صديقا وزميلا لى فى منزل الأطفال رقم ٦ ، ويشتغل منذ زمن عاملا فى ورش سيارات « ستالين » فى موسكو — لزيارة الزعيم الشيوعى النمساوى « فيلى فينك » فى فندق لوكس • كان « فينك » من أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ولهذا أتيحت له الفرصة ، لقراءة الصحافة الأجنبية بما فيها الجرائد النازية •

تحدثنا أثناء شرب الشاى عن الغارات الجوية الأخيرة على موسكو ، فقال « فينك » وكان قد قرأ جريدة « المراقب الشعبى » فى مقر الحزب الشيوعى — : نشرت الصحافة الألمانية ، أن حرائق كبرى اشتعلت فى مدينة موسكو • فضحكنا لأنه لم تشتعل حرائق كبرى فى موسكو ، استغرق « هانز » فى الضحك الشديد بنوع خاص وقال : « لابد أن أحكى هذا لزملائى فى الورشة ، فلسوف يضحكون على هذا الهراء » •

ثم تحول الحديث الى مواضيع أخرى ، ولكن بدت علامات الاضطراب على وجه « فيلى فينك » ثم قال لنا عند توديعنا : « أريد أن أقول لكما شيئا آخر ! أرجو ألا تخبروا أحدا ، عن ادعاء الصحافة ، باشتعال حرائق كبيرة فى موسكو » •

فهمنا ملاحظته ، فنحن نعلم من قبل ، أنه لا يجوز لأعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، أن يتحدثوا بكلمة واحدة لأحد عما يقرأون فى الجرائد الأجنبية ، التى تحول لهم •

امتعضت لهذا الموقف ، اذن لا يجوز لأحد أن يتحدث عن الأشياء التى لا تأثير لها على الاطلاق ، حتى الأخبار التى فى صالح الاتحاد السوفييتى •

علمت فى المساء أن طالبا ألمانيا من « فولجا » كان يسكن فى الحجرة المجاورة لى قد قبض عليه ، وبعدها بقليل قابلت طالبتين من برلين وهما : « جيردا » و « كيتى » كريمتا الكاتب الشيوعى « ألبرت هوتوف » وكانتا تبكيان ، لأن والدهما — وهو مؤلف كتاب (Fi, Scherkutter HF 13); ويعيش منفيا فى الاتحاد السوفييتى ، ولم يمس أثناء حركة التطهير — اعتقلته المخابرات السوفييتية (N.K.W.D.) ذهبت بعد أسبوعين مع طالبتين الى سينما (Udarnik) فرأينا

فى صالة الاعلانات شيئا ؛ لم نكن نتصور حدوثه قبل أشهر قليلة ، رأينا صورا من أفلام انجليزية وأمريكية ، وتحتها كلمات قصيرة عن الفيلم وصور الأبطال • امتلأت كل حوائط صالة الاعلانات فى سينما (Udarnik) بهذه الصـــور . وكانت مفاجـــأة سارة لنا ، وفرحنا برفع الحظر الذى كان مفروضا علينا ؛ حتى ولو لم يزل شيئا متواضعا •

نشأنا فى الاتحاد السوفييتى ، وتربينا بين أحصانه ، فتعودنا على ملاحظة كل تغيير يحدث ، ولو كان صغيرا ، وغالبا ما يربط هذا بالتقلب فى الاتجاهات السياسية •

تطلعنا بكل اهتمام الى صور الأفلام الغربية ، وقالت احدى الطالبتين : « انه لجميل حقا ، مشاهدة مثل هذه الصور ! » •

فوافقتها بايماءة . ثم قلت : « ربما تكون هذه الصور بداية فقط ؟ » ولاحظنا أن أفكارنا كانت فى نفس اللحظة متشابهة ، وبدأنا بحذر حديثا أكثر صراحة : همست فى أذنى بنبرة الملوء تفاؤلا : « ان من حظنا ، أننا لم نعد نسير مع « هتلر » بل نخوض حربا مع انجلترا — وربما فيما بعد مع أمريكا أيضا — ضد « هتلر » ؛ فلو هزم « هتلر » ، فلربما تتغير بعض الأشياء عندنا » •

« أنا آمل أيضا ؛ أنه بعد الحرب •••• » ولم أستطع أن أقول شيئا بعد هذا فقد همست الطالبة — التى كانت قد نظرت حولنا خوفا ، عندما سمعت حديثنا — متوسلة : « هس هس ! صه صه ! أرجوكم ! اسكتوا ! كفوا عن التمادى فى هذا الحديث ! » •

فعاد الينا تمزقنا الداخلى : أردنا نصر الاتحاد السوفييتى على « هتلر » ، لم نكن ضد النظام على الاطلاق ، ولكن لمـــاذا لا يستطيع ثلاثة طلاب فى موسكو ، وهم فى الوقت نفسه أعضاء فى منظمة الشباب ، أن يتحدثوا مرة ، عما اذا كانوا سيحصلون بعد الحرب على وضع أكثر حرية ؟

وفى اليوم التالى — وهو يوم ١٤ أغسطس — نشرت « برافدا » هذا الخبر :

« سلمت قواتنا مدينة « سمولينسك » قبل بضعة أيام » •

قبل بضعة أيام ؟ — معنى هذا أن القوات الألمـــانية ، كانت متجهة الى موسكو ، وطوقت فى طريقها « سمولينسك » •

* * *

توديع موسكو

بدأ النشاط يدب مرة أخرى فى معهدنا فى أول سبتمبر ، غير أن كثيرا منا — ومن بينهم طالبات أيضا — قد جندوا فى الجيش الأحمر ، أو فى الجيش الشعبى ، فى غضون الفترة الماضية ، وكانت هذه أول دفعة ، تستدعى للخدمة ، تلاها دفعات أخرى حتى جند جميع الطلبة • حاولت بكل جهدى أن أدرس ، ولم يكن من السهل الاستغراق فى دراسة علم اللغات ، والمقارنة اللغوية ، بينما القوات الألمانية تطوق « لينينجراد » ، وفى الوقت نفسه تزحف على موسكو •

وفى مساء يوم ١٤ سبتمبر وقف شرطى أمام حجرتى فى مسكن الطلبة ، فتملكنى الرعب ، القاء القبض على أساس خلفيات سياسية ، غير ممكن وقوعه من المخابرات بالنسبة لى ! ولكنى رغم هذا كنت خائفا ، عندما أخرج من حقيبته ورقة ، ثم دقق النظر فيها وقال : « هل أنت الرفيق « ليونهارد » الطالب فى معهد المعلمين التربوى للغات الأجنبية فى موسكو ؟

لم يكن هناك مجال للشك !

« مطلوب حضورك الى قسم الشرطة غدا فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقع من فضلك على هذه الورقة » •

بدا الوضع فى قسم الشرطة ، كما لو كنا فى معسكر « الغجر » الرحل ، اذ تزاحم عدد يقدر بحوالى ١٥٠ شخصا فى الصالة ، وظهر من ملامح وجوههم ، أن بعضهم طلبة • وكان معظم الواقفين فى الصالة من اللاجئين السياسيين الألمانيين حضر بعضهم مع نسائه وأطفاله ، وسرعان ما اكتشفت بينهم عددا كبيرا أعرفه من قبل •

استدعيت الأسر — واحدة بعد الأخرى — للمثول أمام رئيس قسم الشرطة ، ومع ذلك لم يتناقص عدد الواقفين فى الصالة لأن سيل القادمين الجدد لا ينقطع • وسمعت من يهمس فى أذن جاره :

« سيرحل كل الألمان الى « كيسيل — أوردا » ، وسيقيمون هناك ، ما دامت الحرب دائرة ، ولن يستثنى أحد من هذا القرار » •

فسألت : « هل يسرى هذا القرار أيضا على أعضاء منظمة الشباب ؟ فقيل لى : « الكل ! حتى أولئك الذين حصلوا فى مدة اقامتهم فى الاتحاد السوفييتى على عضوية الحزب الشيوعى الروسى ، وسوف يستثنى فقط بعض أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •• لغز كبير !!

ـ أين تقع « كيسيل ـ أوردا » ؟

ـ فى جمهورية « كازاخستان المتحدة » .

ـ حسنا ! وأين تقع جمهورية « كازاخستان المتحدة » ؟

كنا ـ نحن الشباب ـ نتيه عجبا ، لمعلوماتنا الجغرافيـة ونحن نشرح لهم :

« جمهورية « كاراخستان » هى الجمهورية الكبرى الثانية فى الاتحاد السوفييتى ؛ وتمتد من « فولجـا » غربا ، حتى الحدود الصينية شرقـا ؛ ومن « سـيبيريا » شمالا حتى جمهورية « كرجسـتان » و « أزبكستان المتحدة » جنوبا » .

ـ حسنا ! ولكن أين تقع هذه المدينة « كيسيل ـ أوردا » ؟ ولم نعرف بالضبط موقعها .

ـ أنا أعرف فقط ، أن هذه المدينة ، هى احدى مدن أربعة أو خمسة كبرى فى جمهورية « كازاخستان » ومعنى كلمة « كيسيل ـ أوردا » فى اللغة الألمـانية : « القبيلة الحمراء » .

ولم يحدث معنى الكلمة أثرا فى تهدئة « الرفقاء » كبار السن .

نودى اسمى بعد ما يقرب من ساعتين ، وعندما دخلت ، وجدت الشخص الذى نمش أمامه ، جالسا وراء جبال من الملفات ، وبجانبه اثنان من المساعدين . كانوا متضايقين ، للقيام بعمليات الترحيل الضخمة ، التى لم يكونوا يتوقعونها ، ورغم هذا فلم يظهر الغضب فى لهجتهم عندما وجه الى بعض الأسئلة :

ـ منذ متى تعيش فى الاتحاد السوفييتى ؟

ـ منذ عام ١٩٣٥ م ، التحقت عام ١٩٣٦ م فى بيت الأطفال ، ومنذ عام ١٩٤٠ م وأنا أدرس .

ـ أين تدرس ؟

ـ فى معهد المعلمين التربوى لـغات الأجنبية فى موسكو .

ـ ستضطر من الآن للانقطاع عن دراستك ، فقد تلقينا تعليمات بترحيل كل الألمـانيين ، الذين يعيشون فى موسكو الى « كيسيل ـ أوردا » ، وسيظلون هناك ما دامت الحرب دائرة ، وهى مسألة تتعلق « باجراءات الأمن الضرورية » أثناء الحرب . فاذا انتهت الحرب ، تستطيع أن تعود الى موسكو .

وفى غضون ذلك كان المساعدان ، قد انتهيا من استخراج بطاقتى الشخصية ، وعندما تناولتها ، رأيتها مختومة بالخاتم الأحمر الكبير ، ومكتوب عليها :

« لحامل هذه البطاقة الحق ، فى أن يقيم فى « كيسيل ــ أوردا » ، بجمهورية « كازاخستان » السوفييتية ، ولا يجوز له مغادرتها اطلاقا » .

ثم تبين لى فيما بعد أن كل البطاقات ختمت بالخاتم الأحمر . سوف نلتقى قريبا فى منطقة « كيسيل ــ أوردا » بجمهورية « كازاخستان » السوفييتية .

سيعلن موعد السفر الى هناك فى وقته المناسب ، وسوف يكون لنا الحق فى أن نأخذ معنا « عفشا » وحقائب لا يزيد وزنها عن ١٠٠٠ كيلو جرام .

تبسم العمال الشبان والطلبة عند قراءة هذه الملاحظة وعلقوا قائلين : « من منا يملك أشياء تزيد على حقيبتين ! » .

كان حديث الترحيل الى « كيسيل ــ أوردا » هو الموضوع الرئيسى للاجئين الألمانيين . وسرعان ما انتشرت شائعة ، تفيد بأنه قد أعدت قائمة بأسماء أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وممثلى الحزب الشيوعى الألمانى فى موسكو ، الذين يتحتم بقاؤهم فى موسكو .

قررت البحث عن حظى فى هذا الاتجاه ، فقد كانت لى علاقة بثلاثة من أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية وهم : « هانز مالى » الذى كان محررا فى اذاعة موسكو . ورائد الشباب النمساوى « فيلى فينك » و « ليا ليشتر » وهى عضو بارز فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وكانت قد التحقت فى عهد « هتلر » بأول مجموعة سرية فى غرب ألمانيا وتهتم الآن بأنشطة الشباب الألمانى فى موسكو .

ونجحت فى الوصول الى « ليا » فقالت لى : « أنت محظوظ ، لأنهم يحتاجون اليك فى محطة راديو فى موسكو ، ولذا فأنت فى قائمة الذين سيمكثون هنا . لقد تم التوقيع على القائمة اليوم ، وسوف تخبرك الجهات المسئولة فى الأيام القليلة القادمة » .

وفعلا ، تلقيت بعد أيام قليلة أمرا بالحضور الى قسم الشرطة ، فذهبت ولكنى كنت مسرورا هذه المرة .

قرأ رئيس الشرطة المكتوب بدقة ، ثم قارن بينه وبين القائمة ،

ثم أخذ منى — دون أن يتكلم كلمة — البطاقة الشخصية ، التى أعطانيها قبل أيام قليلة • وأثناء اتمام الاجراءات قال لى :

« طبعا سأصدر أمرا باستخراج مستندات جديدة لك حالا ، وبمقتضاها سيكون لك الحق فى البقاء فى موسكو أثناء الحرب • ولو كنت بمكانك ما وافقت على ذلك ؛ اذ من الممكن أن تضطر فيما بعد ، الى مغادرة موسكو تحت ظروف أقسى من هذه الظروف • ولهذا أنصحك أن تسافر بهذه المستندات الجديدة — حرا مختارا — مع المجموعة المرحلة ، التى كنت سترحل معها ، لو لم تحصل على المستندات الجديدة ، وبعد وصول القطار الى « كيسيل — أوردا » تطلع قائد الترحيل على مستنداتك ، ويمكنك فى هذه الحالة أن تبحث عن المكان الذى تستطيع أن تعمل فيه ، أو تدرس » •

لم أكن أتوقع مثل هذا الاقتراح ، ولكنه وضح لى الطريق نوعا ما • ثم واصل حديثه :

— « أنت تدرس فى معهد موسكو للغات الأجنبية ؟ هل سيرحل طلبة هذا المعهد أيضا ؟ »

— نعم ! سمعت أنهم سيرحلون الى « ألما — أتا » فى « كازاخستان » •

— « اسمع ! هذا رائع جدا ! فأنت تستطيع أن تسافر الى « كيسيل — أوردا » ؛ ومن هناك تواصل سفرك الى « ألما — أتا » •

اقتنعت برأيه ، وقبل أن أعود الى مسكنى ، توصلت الى قرار : معى الآن بطاقة شخصية للبقاء فى موسكو ؛ ولكن أستطيع أن أسافر مختارا ؛ وسوف أواصل رحلتى من « كيسيل — أوردا » الى « ألما — أتا » ولن يستطيع أحد أن يمنعنى ، لأنى لم أعد ضمن الأشخاص المرحلين اجباريا •

كان كل شىء واضحا وضوح الشمس ، واعتقدت اعتقادا جازما بأن الأمور سوف تسير ؛ كما قررت فى ذلك اليوم من سبتمبر عام ١٩٤١ م • ولم أشعر بأنى سأقاسى خيبة الأمل بعد أسابيع قليلة • وصلتنا الأنباء بأننا سنرحل يوم ٢٨ سبتمبر ، كان الموقف مثيرا للأعصاب ، فقد رحل عدد كبير من الطلبة ، وكان هنا لقاءات الوداع •

وصلت عربتا نقل فى السادسة صباحا ، فأنزلنا منقولاتنا ؛ وتجمع فى مدخل مسكن الطلبة أصدقاؤنا ؛ وعانقنى صديقى ، وزميلى فى الحجرة .

« بينيك » البولندى ، الذى اشترك فى الحرب الأسبانية ، وتبادلنا الحديث معبرين عن قلقنا وخوفنا من المستقبل ، وتمنينا أن نلتقى مرة أخرى فى المدينة التى سنرحل اليها • ولكن لم يتحقق أملنا ، اذ رحل مرة أخرى — كما حدث بالنسبة لى أيضا — الى أبعد منطقة فى الطرف الشرقى •

انطلقت سيارتنا اللورى ، فتعالت الأصوات بكلمات الوداع ، وابتعدنا شيئا فشيئا عن مسكن الطلبة ، الذى كنت أعتبره أثناء هذا العام ، كوطنى الأصلى • اخترقنا موسكو ، عربتا نقل ، مليئتان بحقائب وصناديق ، ويجلس فوقهما ألمانيون ، لترحيلهم الى « كيسيل — أوردا » •

توقعت أننا سنتجه الى محطة السكك الحديدية ، ولكن سرعان ما تبين لى أن هذا التوقع كان خطأ ، فنحن نوشك أن نصل الى أطراف المدينة • وبعد مرور أربع ساعات رأينا طابورا من عربات النقل مكونا من ٨٠ سيارة ومئات من الناس ، بعضهم يقف أمام العربات والبعض الآخر جالسا ، ومعهم حقائب و « جربنديات » • لم يكن هناك مبنى لمحطة ، بل بعض القضبان فقط ، يحيط بها — على شكل دائرة واسعة — سور من الخشب •

سأل شرطى عند الباب عن الهوية بلهجة فظة ، فأطلعه رجل كان يجلس بجوار السائق على بعض الأوراق ، وبعدها سمح للعربة بالدخول •

وعقب الانتهاء من عملية النزول مباشرة ، توجه الينا بعض المرتدين الملابس العسكرية ، وقالوا : أنزلوا أمتعتكم بسرعة ، واركبوا القطار ، ولا يجوز لأحد منكم مغادرة المكان المخصص له اطلاقا •

وتبينت فى هذه اللحظة وضعى الحقيقى ! لقد اعترانى شعور مخيف ، أن أكون مسجونا •

* * *